



عبد المجيد القدوري

المغرب في إنجلترا.

«أما بعد ان فرغنا من اجوبة كتبتكم وقضى خدمنا ورسولكم الروبيرت بلاك جملة اغراضنا وأغراضكم اقتضى رأينا العلي اسماء الله ان يكون بلاك خديما هناك عندكم يتوسط في بعض اغراضنا السلطانية وفي مصالح الجانبين ويعمل على ما تأمره به فاعرفوا له حق خدمته ونصحه لعلي مقامنا».

«إذا كان التوغل «الأجنبي يسير بطرق متزايدة ويتخذ اساليب مختلفة ليكسب حماية مصالحه بتواجد عناصر دخيلة على المنظومة المغربية فانه علينا الان بعدما عرفنا بالمخطوط - ان تقاربه قصد رصد واستخراج المقاصد الدفينة او ما عبر عنه المولى عبد الحفيظ «والقصد من ذلك هو البحث عن الاسباب التي كانت سببا لاضمحلال المغرب ومتى كانت».

في البحث عن جذور الأزمة :

من العناصر الثابتة في رأي المولى عبد الحفيظ في تفسيره لهذه الأزمة : موقع المغرب الجغرافي وقد اثبت المسألة، على لسان المنصور الذهبي في إحدى رسائله لعلماء الشرق حيث قال :

«ان هذه الاقطار المغربية هي في الحقيقة كلها ثغور ورباطات لقربها من مجاورة العدو الكافر واحتياجها الى المناضل عن دين الاسلام».

وقد حاول المولى عبد الحفيظ ان يركز من جهة أخرى وفي مناسبة أخرى على عدم اهتمام المغاربة بركوب البحر وقد اورد بيتين شعريين في الموضوع :

لا تعجبين لرأسي كيف شاب
واعجب لأسود عيشي كيف لم يشب
البحر للروم لا تجري السفن به
الا على خطر فكيف للعرب
بل كان واضحا في المسألة بل اعتبرها مصيبة المصائب :

«قلت وإذا احطت علما ايها القارئ بما جلبناه من المكاتب السابقة تعلم صحة ما اشرنا اليه سافلا مما كان عليه حال الدول قبلنا بهذه الاقطار المغربية بمد يد المساعدة للدول الأجنبية وإهمال الأمور البحرية التي اهمالها سبب كل بلية».

4 - قد استعمل تفوقه التقني ليعرض خبرته العسكرية بوضعه تحت تصرف المخزن اليات ملائمة. إضافة الى مساندته وتنشيطه للفتن الداخلية إذا اقتضت الحاجة ذلك ويمكن الرجوع هنا الى ما اوردته المولى عبد الحفيظ في هذا الصدد كنموذج مساندة اسبانيا لثورة الناصر بعلمانية التي استغلها فليب II ليضغط على المنصور الذهبي كما يتضح ذلك من خلال الرسالة.

اعتاد المولى عبد الحفيظ الا يتدخل الا في الأمور التي تتطلب نقاشا، من الأمور التي أخذت بباليه واعتبرها أساسية في العطب استنصار المامون بالاسبان لانها تعتبر في نظره غما : «اول ظهور النقص في سيره والغيم في هلاله... مع الدول قبلنا كنا لحما على وضم - كذا - سواحلها كلها بيد الأجانب وامتد ذلك داخل الايالة (دليل ذلك ما نقف عليه [رسالة] السلطان محمد الشيخ السعدي الملقب بالمامون ان احمد المنصور المعروف بالذهبي كتبها لسلطان الاسبان يستنصره في الانتصار على اخيه زيدان لماتلاشي امره وبابيعه الناس وذلك بعدما التزم للاصبان بشروط منها تسليمه للعراش وغيرها مما هو مقرر في كتب التاريخ».

لعل المهم في الواقعة اعتبار المولى عبد الحفيظ لها بداية للداء ثم عاد اليها في مناسبة أخرى ليناقشها شرعا، وقرأ كل ما كتب عنها ومناقشة العلماء لها :

قراءة لازمة مطلع القرن 20

من خلال مخطوط داء العطب قديم للمولى عبد الحفيظ

اضمحلال المغرب من خلال رسائل سعدية وعددها (31) غطت الفترة الممتدة من 933 هـ الى 1054 هـ. وقد دون هذه المراسلات او المكاتب كما سماها في حوالي 68 صفحة.

اثبت في القسم الثالث في حوالي 100 فحة رسالة من الحسن اليوسي ندب الملوك الى المولى اسماعيل. ثم انتهى المخطوط بتدوين مجموعة مكاتب من المولى اسماعيل لابنه المامون وعددها 21 رسالة، ما بين 1098 هـ. و 1110 هـ. عاب المولى عبد الحفيظ على جيله عدم الاهتمام باستحضار الماضي، لهذا نراه يجد التاريخ معتبرا اياه «من اجل العلوم قدرا واعظمها ذخيرا» يمكن من ادراك الاسباب العميقة إضافة الى تنبيه الناس غير ان خيبة أمل السلطان جعلته يثبت قصيدة شعرية لأحد الاشراف كتبها في مطلع القرن 20 انتقد فيها وبشدة انغماس المغاربة في الملذات واللهو وعدم اهتمامهم المطلق بزحف الجيوش التي تريد ان تعمل بالمغرب اليوم ما فعلت بالامس في الاندلس.

رأيت ابليس في نومي فقلت له
ابا المكائد والبهتان والعجب
فاهل فاس طغوا في الأرض وانطرحوا
الى التهلكة بالذات في القسب
تبا لكم قد جهلتم ما مضى وعقب
آثره من ظروف الدهر في الحقب
من اخذ اندلس ذات المعاهد بل
ذات المحافل والفرسان والنسب
افنوا اهلها بالسيف عن عجل
واقفروا ارضها من سلطة العرب
لا تعجلوا فجموع الروم زاحفة
على ممالككم من كلما حديد

انطلاقا من هذه المواقف التوضيحية بدأ المولى عبد الحفيظ معالجة موضوع العلاقات المغربية الاوربية وقدم مجموعة رسائل سعدية لكل من محمد الشيخ واحمد المنصور الذهبي فوضح بها ومن خلالها المكانة التي كان يحظى بها المغرب في عهدهما حيث هيمن على خطابهما في الرسائل وعددها (5) اتخاذها المسافة من الاوربي وتعاملهما معه معاملة اللند، بل اظهرت هذه الرسائل مساهمة المغرب في الاحداث الدولية آنذاك لكن الواقع تغير فأصبح الامراء في موقع ضعف امام اوربا مما جعل المولى عبد الحفيظ يكتب عن المامون ابن المنصور الذهبي :

«ماقيه هذا الملك وابنه عفا الله عنهما من الخيبة وانعكاس الآمال المفضيان بهما الى ما صار اليه من غاية لاضمحلال ماكان لاسلافهم».

ان المتتبع والمتمعن في مضامين الرسائل التي اثبتتها وانتقاها المولى عبد الحفيظ وكذا الحواشي والتعليقات التي سجلها يستطيع استخراج ملامح ومكامن الداء الذي جاء بالتدريج وبتزايد ملحاح وبطرق مختلفة، ويمكن تصنيفه في المحاور التالية :

- 1 - تسرب الاجنبي عن طريق الامتيازات التي خصه بها المغاربة لاسيما القناصل والتجار ومنذ امد طويل.
- 2 - جاء التسرب لذلك عن طريق استعمال واستخدام الهدايا.
- 3 - تمكن الاجنبي من السيطرة على المؤسسات المنتجة والمرتبطة بالخارج.
- 4 - كما ساهم وبطرق مختلفة في اشغال فتيل الفتنة بمساندته لهذا الطرف او ذاك وفق مصالحه.

1 - لقد اورد المولى عبد الحفيظ رسائل كثيرة التح فيها السلاطين المغاربة على التزامهم بالتوقيع والأمان للأجانب منها رسالة المنصور الذهبي بتاريخ 13 محرم 1011 هـ :

«الشريف ايد الله أمره يستقر هذا المكتوب المؤسس على دعائم الوفا... بيد التاجر الفرنسي ويبرط... ويتخذ دليلا يهتدى به في اقطار عمالتنا ويستتير بسناه في اكناف ايلتنا ويقتحم به معافل المراسي: العرايش، وسلا واسفي، والسوس الاقصى فمن وقف عليه فلا يقابله بغير الامتثال ولا يتلقاه الا بعظيم الاحتفال من سائر العمال والقواد ورؤساء الاجناد وفي له بما تضمنه مكتوبنا هذا من مؤكدات العهود».

قراءة الأزمة من خلال المخطوط أو قراءة في المخطوط من أجل مقارنة أزمة مطلع القرن 20 لعل المهمة صعبة لاسيما وأننا لسنا بمؤهلين لها. لهذا يكون هدفنا اقل طموحا لأنه يرمي وبالاساس الى تقديم هذا الكتاب للجمهور الواسع من الباحثين لاننا نعتقد ان اختيارنا هذا مايدعمه او ما يشفع له : اننا نوجد لأول مرة امام سلطان يولف تقييدا في السياسة بالعبارة الواضحة انها محاولة تكتسي اهمية كبيرة لما تتضمنه من أبعاد مختلفة ومركبة لانها انطلقت من داخل الجهاز مع اتخاذها المسافة الضرورية، من أجل تجاوز الكتابة التجديدية من أجل الحفر داخل المجتمع المغربي في كليته قصد استخراج العناصر والعوامل التي كانت تنخره من حيث كان يشعر او لا يشعر.

«أردنا ان نضع كتابا فيه (التاريخ) يستفيد منه القارئ امورا كانت في طي الهمال ويتحقق منه ما هو مستتر من الاحوال والقصد من ذلك هو البحث عن الاسباب التي كانت سببا لاضمحلال المغرب ومتى كانت بعد ان يعلم القارئ ان الغرض من هذا التقييد ليس هو تتبع مسيرة الاجداد وما فعلوا من المصالح الدنيوية والأخروية لان ذلك مثبت في عدة تواريخ وانما المقصود هو التنبيه على ما طرأ عليهم من الحوادث التي صدتهم عن تتبع اوانهم في السهر عن السياسة الخارجية حتى قبلوا شروط الدول الأجنبية».

يبقى المثير في هذا الاقتباس هو وضوح الهدف والرؤيا عند المولى عبد الحفيظ في بحثه عن أسباب الاضمحلال وكذلك في تحديده للزاوية التي اراد الانطلاق منها : الكتابة في الاحداث التي بقيت في طي النسيان.

فقد ألف السلطان هذا المخطوط متناولا الموضوع من الداخل كمارس للسياسة كواحد من الاطراف التي ساهمت في صنع احداث مطلع القرن 20 حتى لا نقول كواحد من الاشخاص الذين صنعتهم تلك الاحداث. يبدو أن الكتاب جاء بعد عقد الحماية لانه اراده وقفة تأملية كما نلمس ذلك من القول التالية :

«ثم اني لم اخرج من فاس بعد عزمي الاكيد على التنازل حتى صار احد قضائياتي يجعل يد القنصل على قلبه ويخطبه بقوله احبك ان تجعلني مثل قميصك الذي هو موال لجسدك وانا احبك فأحبك ان تحبني لمحبتني لك. والأمر لله فمن لا يستغني بالله لا اغناه الله ايدا».

هل هذا ياس منه ام تبرير ؟ لمن ترجع المسؤولية ؟ اله وحده ام للجميع ؟ لاحظ عبد الله العروي بأن فشل الحركة الحفيظية ، فشل جماعي مركب : فيه فشل لاصلاحيات المخزن، وفشل المعارضة الدينية كما أنه فشل لثورات اهل البادية (عبد الله العروي : الاصول الاجتماعية والثقافية للحركة الوطنية ص 410).

فكرة عن المخطوط :

العنوان مستخرج من الورقة الثانية وفيها قال :

وليس هذا في زمن او اخر نابل داء العطب قديم، توجد من المخطوط نسختان في الخزنة الحسينية تحت رقم 11400 ز و 12160 ز. لقد اعتمدنا النسخة الأولى لانها اجود و «أكمل»، من الحجم المتوسط وبخط مغربي لأبأس به الا انها تنتهي بمراسلات المولى اسماعيل علما بأن المولى عبد الحفيظ قد صرح بأنه يريد تتبع خطوات كل الملوك لابرار «الحوادث التي صدتهم عن تتبع اوانهم في السهر عن السياسة الخارجية حتى قبلوا شروط الدول الأجنبية».

لنقرب أكثر من المخطوط يمكننا القول بأنه يتكون من اربعة اقسام(*) ونعني ما بقي موجودا من المخطوط : تناول في القسم الاول وهو الاصغر من حيث عدد الصفحات (15) مواضيع مختلفة حدد فيه اهمية التاريخ ، والاهداف التي جعلته يولف فيه مع تركيزه على الكتابة عن عواصم المغرب الثلاث فاس - مكناس ومراكش لينتهي بابداء ملاحظات عن طبائع المغاربة في الحواضر والبادي ثم الجبال.

بحث السلطان في القسم الثاني عن اسباب

الشرع والممكن :
«والشرع واحكامه كلها منوطة بالسبب عبادة
ومعاملة».

من الاضرار التي وقف عندها المولى عبد الحفيظ الاعطاب التي اصابته ما سماه المولى اسماعيل بخطة المخزن وعبر عنه المنصور الذهبي «بالمخزانية» (إذا كانت خطة المخزن واضحة، لدى احمد المنصور والمولى اسماعيل، لانها اثبتت على الحزم والهيبه، وقد قال هذا الاخير «المخزن لا يؤمن عطيه، لا يسلم من غضبه ولده وصديقه»).

من الامور التي اخذت باهتمام المولى عبد الحفيظ واثبت فيها رسائل كثيرة ظاهرة الفتن داخل الجهاز المخزني فيما بين الامراء وانعدام الحزم والعزم لدى بعضهم وعبر عن الفكرة في تعليق حيث قال :

«من الواجب على الرئيس ان يكون علم العزم والحزم وقد اثبت المولى عبد الحفيظ مثاليين معبرين : المامون السعدي والمامون بن المولى اسماعيل. لقد عاب المنصور السعدي على ابنه في

رسالة بتاريخ 1005 هـ. في 7 صفحات، بعض الممارسات السياسية التي من شأنها ان تضعف المخزن لاسيما وان القبائل المشار اليها اولاد طلحة لا تبحث الا على مصالحها وتقوية تواجدتها وادراك «غور المملكة» لم ينحصر عقوق المامون حسب تعبير اخيه زيدان في هذا المستوى بل قام على والده ونشعر من خلال رسالة وجهها المنصور لابنه بابا فارس بالمرارة والحسرة والخيبة لان خروجه على ابيه اصاب مشروعية الدولة السعدية.

وقد رد المنصور ذلك الى زيغ المامون واتصاله بمن قال عنهم «ساسرة الفتن وطلانغ الثوم والمحن قرناء».

السوء الملاحقون به من جيشه يقدمون على الشر تاراً ويزينوا له عقوقاً ونقورا».

لقد طغت الظاهرة على مراسلات المولى اسماعيل لولده المامون حاول ان يبرز المولى عبد الحفيظ غياب ماسمته الرسائل «الحزم والعزم» لقد هاجم المولى اسماعيل ابنه ونعته بكل النعوت : غياب الشراسة والهيبه ، قلة الفائدة، بالتغافل والتراخي فانت - يقول له - لست من رجال الجد. ومن ثم فان المولى اسماعيل اصبح يطرح مبدأ اختياره للمامون دون اخوته :

«فاعلم اننا كنا نتوسم فيك مسائل وأمور كثيرة وكنا نظن في جانبك من النجدة والفائدة والنتيجة والضبط وعلو الهمة والصبر والنجابة والامثال... ما ليس في اخوتك ومن اجل ذلك كبرناك على عليه منهم واخترناك للولاية دونهم... وقلنا انك اذا رأيتنا كبرناك على اخوتك وخبرناك على بني ابيك».*

من الامور التي ركزت عليها الرسائل الاسماعيلية علاقة المخزن بالاشراف لقد حذر المولى اسماعيل المامون من مخالطة هؤلاء «واياك ثم اياك والميل لمخالطة الشرفاء والجموع معهم» لان في ذلك ضرر للمخزن الذي يجب ان يبقى معهم في «الوقر».

الاستنتاجات :

يكتسي المخطوط اهمية من زوايا متعددة :
اولا : نظرا للعدد الهائل من الرسائل الموجودة فيه لاسيما الجديدة منها (21 عوض 5) نشرها عبد الوهاب بن منصور.

ثانيا : نظرا لذلك الوعي التاريخي لدى المولى عبد الحفيظ ونلمس ذلك عند تحديده لبداية الاضمحلال وتجذر التوغل الاجنبي.

وانقائه لنوعية الرسائل وطريقة تقديمها للقارئ.

وادراكه للعوامل النفسية وضرورة استعمالها في التحليل.

ثالثا : فتح المخطوط كذلك مجالات للبحث في مواضيع لم يقع التطرق لها (دور الهدايا في التدخل الاجنبي).

رابعا : نأسف لعدم وجود القسم المتعلق بالقرن 19 ومطلع القرن 20. ونتمنى ان يكشف في القريب العاجل، حتى تتكبد الرؤية التي ارادها السنطان المونى عبد الحفيظ.



● من القواد

العبيد في عهد

مولاي اسماعيل

الاجانب واخذ الاموال الباهظة منها مع هتك حرمت الاسلام والدين والحرائر ما كان يختار ؟ لقد تخللت المخطوط مناقشات كثيرة من هذا



● نقود مغربية قديمة

النوع دارت في غالبيتها حول موضوع علاقة العلماء بالسلطة، وعاد المولى عبد الحفيظ بعدما انتهت رساله اليوسي لي طرح من جديد مسألة

حيث حمله مسؤولية الاضمحلال.

«قلت ولا ادري هذه المحن التي اصابته هذا الامير (المولى اسماعيل) وهذا لاضمحلال السيء الذي ال الى ما ال اليه الا في صحيفة اليوسي». والاشارة هنا الى قرار المولى اسماعيل بتجريد الاسلحة عن القبائل (والتي تكلم عنها المولى عبد الحفيظ بقوله فرضت عليه ان يحمل الرعية على دفع السلاح «فتصدى هذا الفقيه لانشاء رسالة اشحنها بالغث والسمين يشدد على هذا السلطان في هذا الرأي».

ثم اضاف المولى عبد الحفيظ مناقشة نقطة اخرى كانت دائما موضع نقاش بين العلماء واهل السياسة انها مشكلة الضرائب لان اليوسي ارجع ضعف المغاربة في الجهاد الى ثقل الضرائب : «انما جاهم الضعف من المغارم الثقيلة وتكليفهم الحركات واعطاء العدة كسائر الناس» لقد رفض المولى عبد الحفيظ هذا المنطق واحتج عليه بأمثلة من اوربا فالمغارم يقول :

على قسمين : قسم يقوم به واجب الديانات وهو الزكوات، والاعشار وغيرهما، وقسم تقوم به المصالح العمومية تجلب الالات المدفعية والمراكب البحرية واصلاح البلاد».

انطلق المولى عبد الحفيظ من واقع عصره بعيدا عن ذهنية وممارسات عصر اليوسي، لاسيما وانه كان مستحضرا للنموذج الاوروبي : «وتعرت الملوك لاصلاح الخارجية والنظر في المتعين في ذلك وتلك سيرة الاوروبايين في ممالكهم ومستعمراتهم وقد ابصرت ما ملكوا». اعتمادا على هذا الطرح المخالف لمنطق اليوسي ينهي المولى عبد الحفيظ المسألة بتساؤل ثم يهاجم اليوسي :

«اذا لم تكن الجباية الثقيلة فمن اين يكون ذلك ونصوص العلماء في ذلك اكثر من ان تعد».

لو خير اليوسي بين الجباية الثقيلة التي ترفع البلاد واضمحلال البلاد واستعمارها في ايدي

«وقد راجعت المكتوب فلقيت جل احتجاجهم عليه بخروجه من بين اظهرهم وتركهم عرضة لايدي الفسقة وانه لو جلس بين اظهرهم لم يعدم منهم نصرة».

ما هي اهم الخلاصات التي توصلنا اليها هذه الفقرة او هذا الجزء من العرض :

- حاول المولى عبد الحفيظ ان يظهر ان التدخل والتوغل الاجنبي جاء بالتدريج وبالتراكم.

- من هنا ندرك كذلك تركيزه على ضرورة الاهتمام بما سماه التاريخ الذي بقي في طي الكتمان (ضرورة الوقوف وتتبع ظاهرة الهدايا، ظاهرة الوساطة، الاسلحة وانواعها الخ).

- ضرورة الاهتمام المتزايد والمكثف بالمراحل السابقة للقرن 19.

الاضرار الداخلية او ما سماه المولى عبد الحفيظ «مصائب داخلية»

بحث المولى عبد الحفيظ عن الاضرار داخل مجتمعه لاسيما في القسم الاول من المخطوط والذي سماه ب : فصل في الكلام على عواصم المغرب الثلاث فاس، مكناس ومراكش ثم الكلام على طبائع المغرب. انه عمل مثير لما يحمل في طبائعه من انتقادات لبعض الممارسات الاجتماعية لاسيما في الحواضر لانه وجد فيها بعض عناصر الداء.

«اعلم ان من طبيعة هذا النوع المغربي حب الدنيا ويشتاقها من غير مبالاة في شهواتهم حسب اغراضهم خصوصا في الاعراس والضيافات والولائم الا قليل منهم، والبخل في صرفها في المصالح البلدية او الدينية وهم في ذلك قسمين : قسم يستعمل ذلك حسدا في الامراء والاعيان ، وقسم يستعمل ذلك لقلعة دينه من غير مبالاة يزيد ولا عمرو ولأجل هذين الخصلتين يتسارعون لاخذ الحماية يكثر».

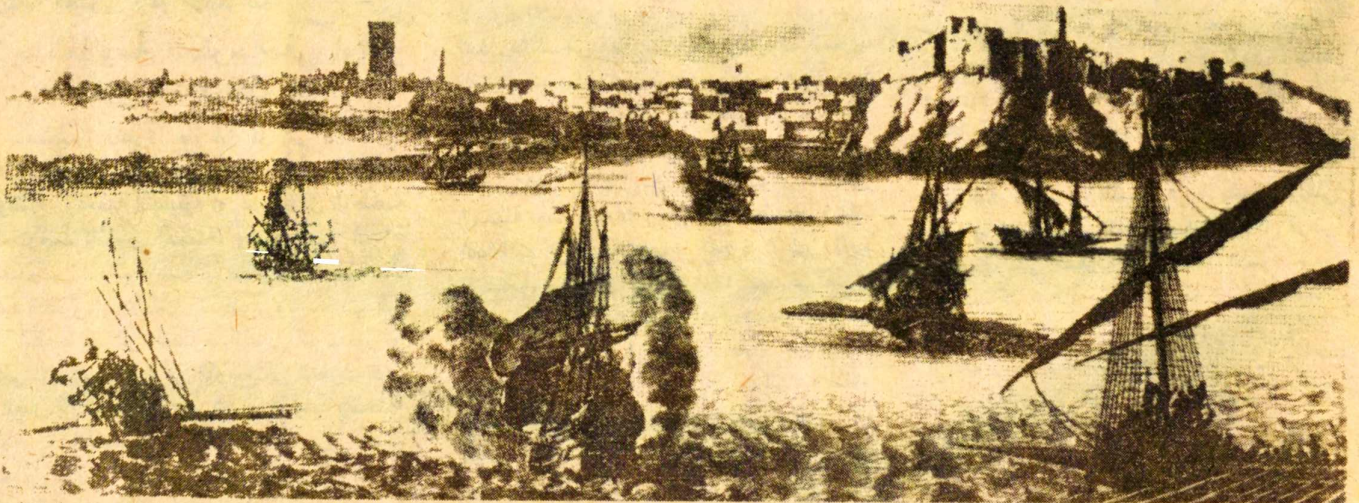
ثم استمر في انتقاده لاهل الحواضر متهما اياهم بالافتخار والاعجاب بالنفس، بالعناد والتعصب، والتساقط والتهاافت على اهل المناصب قليلو العهد والوفاء ، طبعهم الغريزي للعب واللهو، وانعدام الشهامة، لا يصلحون الا مع الضغط وتحت سلطة من لايرحمهم لانهم اذا وجدوا رخاؤا تأسدوا وتتمروا يتسارع لجماعتهم الفساد اذا حل بأيديهم الطمع وهذه الرذيلة عومهم وخصوصهم فيها سواء».

لاحظ المولى عبد الحفيظ بان اهل الحواضر يتحركون عن وعي وارادة على عكس اهل البادية والجبالي لان سكان البادية في نظره «كالانعام بل هم اقل ينفعلون لكل فاعل لا يعلمون شيئا، الا انهم يتميزون على حد قوله : «بعلو الهمة يلجؤون الى الغدر عند الاحتجاج يحبون الترف في المأكولات والمشروب والمنكوح».

ومن «خصال اهلها الادراك والفهم والعلم الا ان التجيب الصغير لا تستمر معه تلك النجابة بل تنعكس بعد الاربعين الا القليل ينفعلون للخوف انفعالا عجيبا».

وأما اهل الجبال فهم يقول المولى عبد الحفيظ اقسام قسم متدين وقسم كأنهم لم تبلغهم الدعوة وقسم مذبذب بين هؤلئك وهؤلئك اخلاقهم غالب عليها الجفاوة».

وتعرض المخطوط وفي مناسبات كثيرة لعلاقة العلماء بالسلطة بل اثبتتها المولى عبد الحفيظ بتدوينه لجواب الفقيه اليوسي للمولى اسماعيل



● صورة لمعركة بحرية بين سفن مجاهدين مغاربة وسفن اجنبية